التلوث اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي

Linguistic pollution on social media

أ.د. سامر جميل رضوان

Prof. Dr. Samer Rudwan

جامعة نزوى University of Nizwa

تعكس اللغة التي نستعملها في أثناء حواراتنا وتعاملاتنا اليومية مع مواقف حياتنا العملية منها والخاصة عموماً، وعبر تواصلنا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي خصوصاً أفكارنا، وتصوراتنا الذهنية عن أنفسنا وعن العالم من حولنا. ويظهر هذا الاستعمال في الأداء بأساليب وتراكيب لغوية مختلفة. وهنا نعدّ هذا الأداء اللغوي الملاحظ للمتلقى بوصفه مرآة عاكسة للنشاط الذهني للإنسان، من حيث، غناه أو ضحالته أو ارتقاءه أو انحطاطه، ومدى تطوره وتقهقره.

فاللغة تظهر لنا كيف يفهم الإنسان نفسه والعالم من حوله، سواء في التعبير الشفهي أو الكتابي عن أفكاره. ويجري ذلك ضمن عملية معرفية معقدة، يقوم بها بتحويل الرموز إلى كلمات، وتراكيب، وأساليب لغوية متنوعة ومتباينة وذات مستويات متعددة من الأهمية له ليعبر عن المعنى المراد توصيله؛ مستعملاً بذلك التصورات الذهنية أو البنى الفكرية لديه التي هي تراكم من المعارف المكتسبة، والتقييمات، والانفعالات. وهنا يمكن القول: إن القدرة على هذه التحويلات من بنية فكرية إلى لغة مكتوبة أو منطوقة أو كليهما ليست سهلة على الإطلاق؛ وذلك لارتباطها بعوامل عديدة، منها: بنية الدماغ نفسه، وطبيعة النشاط الفيزيولوجي، والهرموني في الدماغ، وطبيعة الروابط الدماغية، وتنوعها، وتشعبها ومقدار تطور مركز اللغة ونموه في الدماغ. بالإضافة إلى المؤثرات البيئية، والتنشئة الاجتماعية، والتربية النظامية وغير النظامية، وغنى وسعة الذخيرة اللغوية التي اكتسبها الإنسان عبر مجرى نموه، وقدرته على استعما لها.

فالقدرة على ممارسة النشاط الذهني (التفكير) واستعمال اللغة للتعبير عن هذا التفكير يتطور وينمو نتيجة المؤثرات البيئية التي يخضع لها الطفل منذ ولادته. فكلما كانت البيئة أكثر غنى من الناحية الثقافية حفّزت النشاط الذهني (التفكير) لديه واكسبته القدرة على استعمال لغة غنية وواسعة في التواصل. علاوة على أهمية ما تمارسه البيئة التي ينشأ فيها الطفل من ضبط لاستعماله اللغة، وتدريب مستمر تتسع به ذخيرته اللفظية وتنوع؛ ليتشكّل لديه في المراحل العمرية اللاحقة ما يطلق عليه باولو فرييري البنك اللغوي الذي يلبي حاجياته اللغوية في التعبير عما يدور من في داخله وما يدور حوله.

وعندئذ لا يحتاج الإنسان إلى اللجوء إلى اللغات الأخرى والتراكيب الهجينة؛ لكي يعبر عن أفكاره وإنما يجد في لغته كم من تراكيب لغوية لا تنضب. وهذا لا يعني التقليل من أهمية اللغات الأخرى، بل تعدّ إثراءً في حال عكست محتواها الثقافي والإنساني في تعبير الإنسان بلغته من دون أن تطغى اللغة الأخرى على تعبيره. أمّا في حال طغت اللغة الأخرى على تعبير الإنسان حتى وهو في بلده، فهذا من وجهة نظرنا. يرتبط بمسألة نفسية تتمثل في البنية المعرفية للإنسان وطريقة تفكيره واتجاهه نحو لغته، وتناقضات التربية النظامية وغير النظامية، والازدواجية النفسية التي ينشأ عليها في التعامل مع داخله النفسي والمحيط، في النظرة للذات والآخر، ولأننا والآخرين. وهي في النهاية ما يطلق عليها بعلم النفس مسألة "استعراف" ومسألة "هوية".

ومع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي وانتشارها بشكل واسع أتيحت الفرصة للجميع لأن يسهموا بصورة أو بأخرى بالتواصل مع الآخرين في أي مكان وفي أي وقت. ومن البديهي أن هذا التواصل يحتاج إلى اللغة. وكان دور وسائل التواصل هنا أنها كشفت مدى "عورتنا" اللغوية التي كانت خافية وغير ظاهرة على السطح، وأزاحت الغطاء عن تلك الفجوة الواسعة بين شرائح المجتمع في التعبير اللغوي الكتابي ومدى وجود مشكلات في الكتابة واللفظ والنطق وضحالة التعبير وسطحيته.

ولعل ضحالة التعبير وسطحيته ليس مشكلة خاصة بالناطقين بالضاد فحسب، بل هي مشكلة عالمية خاصة ضمن شرائح معينة من مستعملي وسائل التواصل الاجتماعي. إلا أن المشكلة الأكبر هي في طريقة الكتابة؛ إذ تكون في بعض الأحيان الجملة الواحدة عبارة خليط من اللغة الفصيحة والعامية واللغة الأجنبية مكتوبة بالعربية. بالإضافة إلى مشكلات التهجئة (الإملاء)، ومن جانب تشير كلها إلى إشكالية تربوية ونفسية كبيرة وتكشف عجز النظم التربوية العربية في هذه المسألة. ولقد أسهمت هذه الوسائل من خلال التكرار المنتظم للأخطاء إلى ترسيخ هذه الأخطاء لدى شريحة واسعة من المستعملين لوسائل التواصل الاجتماعي من جانب آخر. بالإضافة إلى ذلك دخلت تعابير وتراكيب مختصرة من اللغة الإنجليزية في الغالب إلى اللغة العربية.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أنه في سن المراهقة، بالتحديد يمكن للمراهقين تطوير لغة خاصة بينهم يستعملونها بطريقة ما لتعبر عن موقف أو فكرة أو أمر ما. وهذه اللغة لا يفهمها إلا المجموعة نفسها التي ينتمي إليها المراهق. ويستعملون تراكيب لغوية وكلمات غريبة أو مقلوبة أو غير مفهومة. ويرجع هذا إلى النمو العقلي والمعرفي لدى المراهق في هذه المرحلة وإلى طبيعة هذه المرحلة، التي تتصف بالانتماء لمجموعة من الرفاق، وإيجاد هوية مشتركة بينهم تكون مثل

هذه التراكيب رمزاً للتعبير عن هذه الهوية. غير أن هذه الظاهرة تميل للاختفاء ثانية مع التقدم في العمر باتجاه النضج.

وقد دخلت هذه اللغة الرمزية إلى وسائط التواصل الاجتماعي بشكل مكثف، لوجود شريحة كبيرة من المراهقين الذين يشكلون مجموعات أوسع من مجرد رفاق المدرسة، ومن ثم فقد بدأت تظهر هذه اللغة على شكل كتابات غير مألوفة وغريبة ومشوهة في كثير من الحالات. يضاف إلى ذلك أن لغة التواصل من خلال وسائل التواصل الاجتماعي تحتاج إلى السرعة والاختزال، وهذا يشجع على انتشار هذا النوع من الصياغات التي تبدو غريبة عن اللغة العربية. وربما تكون هذه لغة أخرى مختلفة كلية عن اللغة العربية تكسر حواجز تعدد اللغات وتحقق نوعاً من سرعة التواصل، لغة تفهمها شريحة واسعة من الناس من دون أن يشتركوا جميعاً في اللغة الأم.

من المسؤول عن هذا؟! إنه تاريخ طويل من الهزيمة الداخلية التي عاشها ويعيشها الناطق بالعربية و "التغريب"، الذي أتى من ناحيتين: سببه ذاتي (داخلي) والثانية من الخارج.

بالإضافة إلى غياب الاهتمام اللازم بمسألة "الازدواجية اللغوية: في الوطن العربي من الناحية النفسية وتأثيرها النفسي، خصوصاً من ناحية تكوين الهوية وتشكلها على المواطن العربي، ومدى التقارب بين اللهجات العربية من ناحية أخرى.

كما أن التخطيط التربوي القائم في بعض الدول العربية يبدو أنه قاد إلى إضعاف الاهتمام باللغة العربية وترسيخ الازدواجية اللغوية؛ إذ جرى بوساطة نقل التجارب التربوية بمناهجها من البلدان الأجنبية من القائمين على العملية التعليمية. ومن ثم الأخذ بتعليم العلوم باللغة الإنجليزية والاقتصار في تعليم اللغة العربية على الأدب والدين. وهذا أدى دوراً بتفاقم أزمة الهوية. فأصبح هناك انقسام عرضي في المجتمع بين فئة لا تتكلم سوى العربية تنفر من اللغة الإنجليزية جل اهتمامها بالدين والأدب، وفئة لا تستعمل في حوارها اليومي سوى اللغة الأجنبية؛ معبرة عن هشاشة هويتها، ونظرتها الفوقية لمجتمعها، تغطية لعجزها المعرفي في القضايا المطروحة ذات الصلة بمجالها ليتكشف تبعاً لسلوك تلك الفئة القصور غير المعترف به في بنيتها الفكرية العميقة ممن يشعرون تجاهها "بعقدة النقص"، فهي تُرضي مصالحهم، وهي بمنأى عن خدمة ثقافتها. وهناك فئة ثالثة "مستنفقة" تستخدم خليطاً من لغتها الأم الركيكة، ومن اللغة الأجنبية التي هي فيها ركافة أكثر، وهذا مؤشر مظهر من مظاهر "التهوي" والفوقية الثقافية أيضاً.

يحتاج ما سبق ذكره إلى تنظيمات قانونية لمعالجة هذه المشكلة، فيما يخص البرمجيات، وما ينبغي أن يتوافر فيها من خصائص وصفات. وينبغي عدم ترك المجال للمبرمج وحده؛ ليحدد ما الذي

يمكن برمجته وما لا يمكن برمجته. ففي اللغة الإنجليزية تتوافر على سبيل المثال، برامج تصحيح لغوي وقواعدي فاعلة بدرجة كبيرة في حين أنها لا تتوفر في اللغة العربية.

ومع تأكيدنا على أن مواقع التواصل ليست مسؤولة عن هذا التردّي، بل هي مجرد انعكاس لمستوى تراجع الوعي وتخلفه، الذي ينعكس بدوره على اللغة المستعملة. وإذا أردنا معالجة المشكلة فإن الحلول هنا يفترض لها أن تكون متعددة المستويات: هنا ممكن تضع على مستوى

- وسائل الإعلام بما تملكه من إمكانات غنية وواسعة في تنمية الذخيرة اللغوية والأساليب التعبيرية لدى فئة واسعة من السكان عموماً.
- ربط استعمال اللغة بالحاضر عبر نماذج عصرية معيشة حاضرة في حياتنا، وليس الاقتصار على استعمال اللغة بسياقات ذات مواضيع تاريخية وتراثية ودينية فحسب. فالأسلوب الذي تستعمله بعض وسائل الإعلام يوحي بأن اللغة العربية مجرد لغة تاريخية لم تكن تستعمل إلى في العصور الغابرة.
- إعادة الاعتبار إلى تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات. فلقد استوعبت اللغة العربية جميع العلوم في الماضي وأنتجت علومها الخاصة، وهي غير قاصرة على استيعاب جميع العلوم. وذلك لأن الطالب الذي يدرس علومه بلغة اجنبية لا تتجاوز ذخيرته اللغوية منها ٥٠٠٠ كلمة في أقصى حد ويعاني من مشكلات قواعدية وتراكيبية لغوية، لن يكون قادراً على إنتاج وعي وفكر مختلفين بمقابل من تكون ذخيرته اللغوية أكثر من مائة ألف كلمة ولا تعوزه القدرة على التركيب اللغوي والفهم والاستيعاب.
- التأكيد على أهمية أن يتكلم المعلمون في المدرسة وفي جميع الأنشطة الصفية واللاصفية اللغة العربية الفصحى. ويلاحظ اليوم أن أغلب المعلمين لا يجدون اللغة العربية ولا يتقنون نطق الأحرف ولا يركزون في التدريس على اللغة العربية واستعمالها.

وفي الختام فوسائل التواصل الاجتماعي تعبر عن صورة الذات عند الإنسان. إنها الصورة التي يحب أن يرانا الآخرون من خلالها. وحسب طريقة فهم وإدراك الإنسان لأهمية هذه الوسائل واستعمالاتها، والحاجات التواصلية التي يسعى إلى إشباعها من خلالها، يكون التعبير اللغوي. ولا يمكن توقع أن يكون الجميع على المستوى نفسه. وقياس مدى الفجوة بالنخب وغيرها من المستعملين يحتاج إلى دراسة تقوم على تحليل مضمون الخطاب الوارد في تلك الوسائل، وتحديد أهدافه لمعرفة مدى التباعد. إلا أنه في كل الأحوال يعتقد بأن تلك الفجوة ستظل قائمة، ويتطلب

ذلك جهوداً كبيرة في زيادة عدد المنشورات التي تستعمل اللغة العربية بصورة سليمة، لتطغى على تلك التي تكون دون المستوى.